وامعتصماه!

للأستاذ عُمر الدسوقي

عربيـــة كريمة ، تنمى إلى أمة لم تألف الـذل مرة ، ولكن رحب البيد أحكم عزها فما شئت من من قلب أبى ، ومنطق سليم ، وعقل أنضجته التجارب ، ونفس ترى الدنيا لديها رخيصة ، إذا كان فى الدنيا هوان يشينها : إلى كل شهم أريحى تزينه ، خلال كروض الزهر طاب عبيرها :

إذا سيم ضيما كان للضيم منكراً ... وكان لدى الهيجاء يخشى ويرهب
وإن صوت الداعى إلى الخير مرة ... أجاب لما يدعو له حين يُكرب

أبى على هذه العربية جَدُّها التَّكِيد إلا أن ترسف فى ذل الأسر عبَّ حرب من تلك الحروب الطويلة التى ظل أوارها مشتعلا حقباً مديدة بين العرب ، الذين حَمَّلهم الله رسالة الإسلام ، لينقذوا بها البشرية الكليمة ، وبين الروم الذين أدال الله منهم ووضع أنوفهم فى الرغام ، وإن لم ينسوا عزهم الغابر ، فظلوا يغيرون على أطراف الدولة العربية الشامخة كلما هبت عليهم نسمة من قوة ، أو غرتهم من المسلمين غفلة عارضة .

وفى ذات يوم لطمها سيدها الروى على وجهها الحر الكريم فوخزها ألم الذل وخزة صاحت على إثرها تستنجد الخليفة العربى العظيم : وامعتصماه ! وامعتصماه ! فضحك العلج ملء شدقيه ونظر إليها نظرة الشامت الجبان ، وقال : وماذا عساه يفعل المعتصم؟ أيجىء على أبلق وينصرك ؟ ! إنك ذليلة كسيرة ، وقد كتبت عليك الشقوة ، وهيهات أن يستجيب لندائك الوقح هذا الذى تنادين ! ثم أشبعها ضرباً ولطماً ، وهى تنادى وامعتصماه ! وامعتصماه !

جاء رجل إلى المعتصم ، وبلغه نبأ هذه العربية الكريمة ، فانتفضت نفس الخليفة الجليل انتفاضة الألم ، وسأل الرجل : وأين هذه المرأة ؟ فأجاب : إنها فى عمورية يا أمير المؤمنين ، فقال المعتصم : وفى أى جهة عمورية ؟ فأشار الرجل إلى جهتها ، فنادى المعتصم بأعلى صوته : لبيك يا ابنة الكرام ! لبيك ! ثم لبيك ! هذا المعتصم بالله أجابك !

وتجهز المعتصم من فوره إليها فى اثنى عشر ألف فرس أبلق تطوى سنابكها الأرض طياً لتغيث اللهوف وتستجيب للنداء الأبى

وكانت عمورية مدينة عانية ، قد أحكم تحصينها ، وبها من جنود العدو تسعون ألفاً أو يزيدون ، فحاصرهم المعتصم ، وطال حصاره لها ، وأخبره المنجمون أنها لن تفتح إلا فى الصيف حين ينضج التين والعنب ، وكان قدومه إليها فى زمهرير الشتاء ، والأرض مسجاة فى كفن أبيض من الثلج ، وقد صوَّح ما عليها من شجر ، وقل الماء والثمر ، وأجهد الجيش ، كما أجهد العدو المنيع . بيد أن المعتصم أبى أن يستمع لصوت المنجمين المثبطين الذين أنذروه شراً مستطيراً إن هو استجاب لرغبة فؤاده واقتحم أسوارها :

وخوفوا الناس من دهياء مظلمـــة ... إذا بدا الكوكب الغـــربى ذو الذنب

وشد على المدينة شدة بطل مغوار فدك أسوارها ، وأشعل النار فيها ، فذلت له وما ذلت قبل لأحد :

من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد ... ثابت نواصى الليالى وهى لم تشب
بكرٌ فما افترعتها كف حادثة ... ولا ترقت إليها همة النُّوَبِ

ودعا المعتصم بالرجل الذى بلغه حديث الجارية العربية المستغيثة فدله على الموضع الذى رآها فيه تذل وتهان ، وبحث عنها حتى وجدها ، وقال لها : هل أجابك المعتصم ؟ ! وصار سيدها الروى

— وأنا سمعت آخرين يقولون إن المدنية لا تكون شرقية ولا غربية ، إنما هى علم يعلمه الإنسان أنَّى كان ، ومن يخلقه الإنسان أنى كان فجيئها وجدت الجهالة والمرض ، وجدت ماذا ؟

— لكنهم يقولون ...

— ويحك من نملة حمقاء ، أفتنصتين بعدُ لما يقولون ؟ إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ألا يكفيك ليلة واحدة تقضينها فى علبة الفلفل ؟

زكي نجيب محمود

لها عبداً ذليلا وأفعم قلبها عزة وأنفة . ورحم الله أبا تمام حين مدح المعتصم إثر هذا الفتح المبين بقوله مستهزئاً بآراء المنجمين :

السيف أصـــدق أنباء من الكتب
في حده الحـــد بين الجد واللعب
بيض الصـــفائح لا سود الصحائف في
متونهن جـــلاء الشـــك والريب
أبقت بني الأصـــفر المراض كأمهم
صـــفر الوجوه وجلّت أوجه العرب
تسعون ألفاً كأســـاد الشرى نضجت
جلودهم قبـــل نضج التين والعنب

واليوم ، وعلى مرأى منا ومسمع تنادى بلدة عربية كريمة ، وهي فلسطين الجريحة : وامعتصماه ! وامعتصماه ! . وقد أبى لها الجد العاثر إلا أن ترزأ بشرذمة من صعاليك الأمم ، وأفاق الأرض الذين لفظتهم ديارهم ، وجمهم مواطنوهم . يريدون أن يسلبوها عروبتها ويهدروا كرامتها ، وقد مالأهم من لا أخلاق لهم من تلك الدول التي باعت ضمائرها للشيطان ، وخنعت لصوت الذهب الرنان ، وصفعت الإنسانية المهيضة على وجهها دون حياء ، أو شعور بعظم الجريمة ، وتنكرت لكل تعاليم الحضارة الحقة ، فلا شرف ، ولا ذمة ، ولا مروءة ، ولا عدالة . بل اتخذت شريعة الغاب ، وقانون الكهوف لها إماماً ، فتباً لهم وخزياً ... !

أحقاً إننا أمة هازلة لا تدرك الخطر الداهم ، ولا تقدر الخطب الجاثم ، ولم تخبر العدو الظالم ؟ هل ستمثل مأساة الأندلس على مسرح التاريخ ثانية ، فياقى بعرب فلسطين في البحر ، كما ألقى عرب غرناطة من قبل . ويومئذ نجهش بالعويل والبكاء ، وننتحب كما تنتحب النساء : نقلب الأكف أسفاً وندماً ، ونعض الشفاه حسرة وألماً ، فيقال لنا كما قيل لأولئك : مُلك لم تحافظوا عليه كمحافظة الرجال فابكوا عليه اليوم بكاء النساء . ألا تعساً لأمة هازلة وسحقاً ! .

إن الأمر جد ، فنصرة فلسطين لا تدعو إليها لحمة القرابة والنسب ، ولا صلات التاريخ والأدب ، ولا حرمة الجوار وأخوة العرب فحسب ، ولكن تحثنا إليها فضلا عن كل ذلك — وما ذلك بالقليل — زعامة مدعاة ، ومصلحة مرجاة . فمصر اليوم تنص بالرجال والأموال ، وتتبوأ في قلوب أبناء العروبة لمكانتها العلمية ، ونضجها الفكري أسمى منزلة . ثم إن دولة يهودية في فلسطين مؤيدة بأموال اليهود في العالم ، وبخبرتهم العلمية وثقافتهم الواسعة لهي الوباء الذي يقضي على كل ما تفكر فيه مصر من مشروعات وإصلاحات ، وما ترجوه من تجارة عريضة دولية ، وصناعة ضخمة تغنيها عن سواها ، وأساطيل مدنية تجوب البحار وتجلب الخيرات ، وموانئ تحتل مركز الصدارة على سيف البحر ، وغنى يكفل لبنيها الذين أرهقوا طوال حقب التاريخ نوعاً مقبولا من معيشة الأنامي ذوي الحضارة . كل هذا مهدد بكارثة على يد الصهيونية ودولتهم المنتظرة لا قدر الله !

ثم إن هؤلاء الأفاقين — وهم قلة وسط البلاد العربية — سيطلبون العون حتماً من حلفائهم الذين ناصروهم وستظل فلسطين على أيديهم مباءة للمستعمرين الغاصبين ، يهددون الحريات ، ويمتصون دماء الأبرياء ، ويوقعون بين الأخوة من العرب العداوة والبغضاء .

فدفاع مصر عن فلسطين دفاع عن أخ شقيق ، ودفاع عن مصلحة مشتركة ، ودفاع عن كسرة الخبز ، وموارد الحياة ، وأسباب العزة والحياة ، ودفاع عن الحرية والسلطان ، وعن كريم يهان ، وعزيز يذل ، ومال يسلب ، وعرض ينتهب ، وتراث يغتصب

لتجد مصر بالمال غنيها وفقيرها ، صغيرها وكبيرها ، شبابها وكهولها ، رجالها ونساؤها ، فالمعركة فاصلة ، وقد عجم الغرب الغشوم عيداننا فإما وجدها صلبة قوية فارتد خاسئاً وهو حسير ، وإما وجدها لينة رخوة تحرص على المال ولا تحرص على الحرية ، ولا الكرامة ، ولا المستقبل ، فتمادى في شرته وأفصح عن جبروته وسطوته ، وفي ذلك ذل الأبد لا قدر الله ! .

لتجد مصر رجالها وشبابها ، وفي ميدان فلسطين فرصة ذهبية لتدريب ذلك الشباب الذي قلت أظفاره سِنى البغي والعسف والجهل ، فتخنث ونسي معتقده الكريم وتاريخه العظيم ، وتطرّى وأمعن في الهزء والحياة العابثة . إن هذا الشباب لو أحكمت مِرَّته ميادين القتال ، وحياة الخشونة ، ومصارعة الأعداء ، لعاد بعد هذا الجهاد إلى مصر وحسب له أعداؤها ألف حساب .

إن فلسطين اليوم تنادي : ! وامعتصماه ! وامعتصماه !

فليكن كل مصري ، بل كل عربي — أين كان محله — معتصمها الذي تناديه ، وفارسها الذي ترجيه .

يتلقى الندى بوجه حيي ... وصدور القنا بوجه وقاح
هكذا هكذا تكون المعالي ... طرق الجد غير طُرْق المزاح

عمر الدسوقي